الفصل التاسع

الدين كمانع أمام تسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

يتسحاق رياطر[٩٣]

مقدمة

في العقود الأخيرة ارتفع باستمرار ثقل الدين في الصراعات العرقية والقومية، وبخاصة في الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني أثارت نتائج حرب 67 وبخاصة احتلال القدس وأراضي فلسطين، اتجاهًا مسيحانيًا واستيطانيًا بين الصهيونية الدينية في إسرائيل، وبعد ذلك جاءت الانتفاضة الأولى (1987) وجعلت حماس التي كانت تيارًا اجتماعيًا إسلاميًا، حركة سياسية. وفي السنوات الأخيرة حصلت الأيديولوجية الاستيطانية الصهيونية على دفعة من حركة شاس وعناصر حريدية وحسيدية. وفي الجانب الفلسطيني وصلت حماس إلى موقع التأثير: انتصار في انتخابات 2006 وسيطرة على قطاع غزة. تعتبر حماس، كحركة دينية، مشكلة فلسطين مشكلة دينية والصراع مع إسرائيل صراعًا دينيًا بمفهومين: قدسية القدس التي تشع على فلسطين كلها وتصور اليهودي سيئًا من الأساس. إضافة إلى ذلك، حماس مستعدة

(٩٣) أتوجه بالشكر لأربعة زملاء قرأوا الصياغة الأولى (والمضنية) لهذا المقال وأبدوا ملاحظاتهم: الحاخام الأستاذ روتنبرج (حاخام استيطان هار ــ أدرا وزميل كبير في معهد فان لير في القدس) الحاخام دكتور اليآف طاوب من كلية أشكلون، الأكاديمية وجامعة بار إيلان، والدكتور نمرود لوز من كلية عيمق يزرعئيل وأفرايم لافي من جامعة تل أبيب. شكر خاص لمحرر هذا الكتاب ــ الأستاذ يعقوب بر سيمان طوف على ملاحظاته واقتراحاته.

مبدئيًا لقبول وقف مؤقت لإطلاق النار (شتاينبرج 2002). لقد اعترفت حماس بقوة القومية الفلسطينية، لكنها وجدت طريقًا لإشراكها في وجهة نظرها والتوفيق بين الهوية الإسلامية والهوية الوطنية من خلال شعار: «حب الوطن ينبع من الإيمان» (الديني الإسلامي). لقد استوعبت حماس رغبة الشعب الفلسطيني في التخلص من عبء الاحتلال الإسرائيلي وعدم الانتظار حتى تتحرر فلسطين كلها، وبهذا أوجدت ما يشبه خطة على مراحل أهدافها على المدى المتوسط تشبه أهداف منظمة التحرير. وفي الوقت نفسه تخطط حماس للسيطرة على منظمة التحرير بالوسائل الديموقراطية، مع استغلال شعبيتها في الشتات الفلسطيني ومخيمات اللاجئين. الخطاب السياسي من كلا جانبي الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مفعم بالقيم والرموز الدينية التي تضم قدسية الأرض والوصية الدينية للسيطرة عليها وتوطينها، والأماكن المقدسة والحرب، و«الإرهاب» والتضحية من أجل هذه المثاليات الدينية. وطالما أن الخطاب الديني هو ملك للأقلية فقط، فإن الدين لم يكن مانعًا حقيقيًا لتسوية الخلاف. لكن منذ عملية أوسلو (1993) تعمق هذا الخطاب وتقوى بين الجماهير التي لا تعد دينية وبين الزعماء العلمانيين.

مشكلة وضعية وقدسية الأرض المختلف عليها ـ أرض إسرائيل / فلسطين بما فيها القدس ـ تضم بعدًا دينيًا ثقافيًا عميقًا في الصراع القومي. يضاف إلى ذلك دور المستوطنين الإسرائيليين (مثل جوش إيمونيم) الذين تحركهم أيديولوجية أصولية يهودية (Lustick, 1988; Weisburd, (1989; Gorenberg, 2006 حيث تؤيد الحكومات الإسرائيلية نشاطاتهم الاستيطانية منذ أكثر من أربعة عقود، أو على الأقل لا تتخذ خطوات ملموسة لوقفها (اللهم إلا التجميد المؤقت للبناء الجديد)، يثير أيضًا انطباعًا بأن البعد الديني (اليهودي في هذه الحالة) الذي يعد عنصرًا رئيسيًا في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، يقف عائقًا أمام إيجاد تسوية وحل. ومن ناحية أخرى، العمليات «الإرهابية» والمقاومة التي تقوم بها المنظمات الفلسطينية

المسلحة ضد أهداف إسرائيلية وضد مواطني إسرائيل، ونظرية التضحية (الشهادة) التي تعد منظورًا دينيًا ـ تزيد من قوة الوجه الديني للصراع في العالم الإسلامي وبين الفلسطينيين، الذين أغلبهم مسلمون. وسواء كانت القيم الدينية «مستغلة» أو «مجندة» بصورة مصطنعة أو أنها تعكس مشاعر إيمانية حقيقية، لا يوجد شك في أن مجرد وجودها يضع عائقًا أمام إيجاد حل للصراع وربما أيضًا إمكانية تسويته. يناقش هذا الفصل مسألة؛ هل تعوق القيم الدينية اليهودية الإسرائيلية والإسلامية الفلسطينية، إمكانية التوصل إلى اتفاق سياسي بين الأطراف؟

ومن أجل مناقشتنا يعد المانع الديني حالة تعيق فيها القيم الدينية والرموز الدينية إمكانية التوصل إلى التفاوض والتسوية بأسلوب تسوية الصراع على الأرض. الدين مانع لتسوية الخلافات إذا توفرت الظروف التالية أو بعضها في المجتمعين اللذين يعدان طرفًا في الصراع :

- قيم الإيمان الديني التي تفرض الحرب على المناطق المقدسة وعلى الأرض المقدسة وترفض التفاوض أو التسوية في هذه القيم.
- تم توريث خطاب القيم الدينية للجماهير العريضة ـ بما فيهم العلمانيون أو من لا يقيمون تعاليم الدين بصورة منتظمة ـ بصورة تجعل من القيم والرموز الدينية جزءًا من نسيج الهوية الصلب الذي لا يمكن التفاوض عليه أو المساومة بشأنه.
- القوة السياسية للحركات الدينية التي ترفع شعارات القيم الدينية وتعمل على تلقينها للجماهير العريضة قوة حاسمة (بحكم طبيعتها، وبحكم كونها رمانة ميزان في منظومة سياسية منقسمة، أو بسبب قدرتها على خلق تحالفات سياسية واسعة وقاطعة).
- النشاطات المتطرفة من جانب الأفراد أو الحركات التي تحركها أيديولوجيات دينية قومية، وقادرة على إحباط نجاح المفاوضات السياسية من خلال أعمال الاغتيال السياسي أو أعمال «الإرهاب» التظاهرية.

- حشد «محاربين» مفعمين بالإيمان الديني من العالم العريض وراء أرض الصراع.

سأحاول فيما يلي توضيح ما إذا كانت هذه الشروط موجودة لدى كل طرف من أطراف الصراع المعني أم لا. وسأبدأ بتحليل مفاهيمي لدور الدين في الصراعات العرقية، وبعد ذلك أدرس القيم الدينية ذات التأثير على الصدامات ومدى قبولها لدى الجماهير العريضة. وفي معرض النقاش سأناقش القوة السياسية للحركات ذات الأيديولوجيات الدينية القومية وقدرتها على الحسم أو التأثير على متخذي القرارات، وأنهي بتحليل الأخطار الكامنة من جانب عناصر دينية متطرفة تريد بأي وسيلة منع المفاوضات أو التسوية.

دور الدين في الصراعات العرقية والقومية

اعتبر عصر القوميات الحديثة بالخطأ نهاية لعصر الحروب الدينية وانتهاء تدخل رجال الدين في تحديد مصير الشعوب وعلاقاتهم المتبادلة. في العصر الحديث يبدو أن سيادة الشعب وحق الشعوب في تقرير المصير والسيادة قد هزمت سيادة الله. لكن أضاع هذا ظاهريًا سمة هامة بخصوص الدور الجديد للدين في النظرية القومية. فلقد أدرك منظروا القوميات أن الشعوب الحديثة «تتصور» مكونات الهوية القائمة على إرثهم الثقافي (Anderson, 1983). نفس الإرث الثقافي يضم في حالات كثيرة عنصر الدين باعتباره عنصرًا هامًا بل ورئيسيًا في بعض الأحيان في الإرث والهوية. وربما كانت الحركة الصهيونية نموذجًا واضحًا لاعتبار الشعب القديم - بنو إسرائيل - نموذج رئيسي للقومية العبرية، وفي القرن التاسع عشر- تشكلت نظرية الاستمرارية «القومية» للإنسان العبري/ اليهودي (Ben Israel, 1998) سواء كان اليهود شعبًا أصيلا، واستمرارًا للعبرانيين القدامى، أو كانوا شعبًا جديدًا أوجد أسطورة الاستمراية القديمة (زند2008)، وما من شك في أن اليهودية مكون رئيسي في الهوية الصهيونية (شابيرا 2002 :212)، وتعتبر إسرائيل، التي تعرف نفسها

بأنها دولة يهودية ديموقراطية، أن زعزعة طابعها اليهودي (من خلال زعماء عرب ـ إسرائيليين وغيرهم) يعد تهديدًا ومعارضة لشرعيتها ونظامها.

لقد نشأت الحركة الوطنية اليهودية من داخل تيار فكري علماني، لكن منذ بدايتها ضمت حركات وأحزابًا دينية اعتبرت الصهيونية جزءًا من رسالتها الدينية لتقريب الخلاص (أو مع الفارق: حتى لا يعجل الإنسان بالخلاص). إضافة إلى ذلك، فإن قادة الحركة الصهيونية، وكذلك أيضًا قادة دولة إسرائيل، حشدوا الرموز الدينية كجزء من بناء الهوية القومية (رافيسكي Abu, 1994; Dubinski, 1996, 2008) والنموذج البارز على ذلك هو الجهد الذي بذله حاييم فايتسمان، الزعيم الصهيوني العلماني، بعد الحرب العالمية الأولى، لشراء ساحة الجدار الغربي (Reiter & Seligman, 2009).

يوجد أيضًا في الإسلام مزج مشابه بين القومية الحديثة والقيم الدينية (Shenhav, 2007) وهو يوقف احتمال علمنة القوميات (Hefner, 2000). تسمى هذه الظاهرة «قومية دينية» (Religious Nationalism) تتطلع إلى تديين (religionalisation) الثقافة السياسية وتركيز حصري للهوية القومية في الدين (Friedland, 2001) تعرف أغلب الدول العربية نفسها أيضًا بأنها دول إسلامية، وبعضها (إن لم يكن أغلبها) يعطي مكانًا ملموسًا للقانون الإسلامي ـ الشريعة ـ كمصدر للتشريع. الإسلام هو أحد مكونات الهوية البارزة بين العرب في الشرق الأوسط بما فيهم الفلسطينيون[٩٤].

هناك حقيقة أخرى تشير إلى المعتقد الديني والدين كعنصر هوية عرقي وقومي، وهي ظاهرة أن الصراعات القومية تحظى بطابع صراع بين جماعات دينية. منذ الحرب العالمية الثانية وحتى بداية القرن الحادي والعشرين ـ حمل جزء كبير من الصراعات الإقليمية طابع الصراعات بين جماعات لها هوية دينية، وفي هذه الحالات

(٩٤) يمكن أن نرى نموذجًا هامًا على ذلك في موقف شخصيات عربية ـ إسرائيلية غير متدينين بل وحتى عرب مسيحيون، ممن قالوا بعد اندلاع انتفاضة الأقصى: إن المسجد الأقصى يمثل بالنسبة لهم رمزًا للهوية القومية، حمايتها من السيطرة الإسرائيلية تبرر النضال (لوز 2004).

كان الصراع أكثر عنفًا من الصراعات بين الجماعات ذات السمات الدينية (Pearce, 2007) وانتهائها من خلال تسوية أو اتفاق كان أصعب بكثير (Svensson, 2007). الصراع الإسرائيلي العربي- الذي تعمل جماعات الجهاد والإخوان المسلمين بكافة فروعها المختلفة على أسلمته (رياطر 2005)، بينما نجد أن الدينيين القوميين اليهود يعملون على تهويده (Lustick 1988; Hanauer, 1995) لا يعد حالة فريدة وشاذة. وأشهر النماذج هي الفجوة الكاثوليكية ـ البروتستانتية في أيرلنده، والفجوة الشيعية السنية في العراق وفي الشرق الأوسط برمته، والتوتر بين الهندوس والمسلمين في الهند، وبينها وبين باكستان عامة ومستقبل كشمير خاصة، والحرب والصراعات بين صربيا والبوسنه، التي خرب خلالها الصرب المسيحيون الأرثوذكس والبوسنيون المسلمون مئات الكنائس والمساجد، وأيضًا هوية الوحدات البلقانية المسماة «إثنو ـ إكليريكية» (Perica, 2002) وبعض الصراعات في وسط آسيا (جورجيا، والشيشان وطاجستان) تلبس هي أيضًا طابعًا دينيًا، وأخيرًا أيضًا في نيجيريا. أيضًا في الأديان السلمية التي لا يوجد بها بعد العنف والحرب، مثل البوذية والهندوسية، يستخدم الدين أداة تعبئة للعنف تجاه أبناء الدين الآخر الذين يوجد لديهم صراع إثني ـ قومي بين الجماعات المنتمية للديانات المختلفة. على سبيل المثال حالة سريلانكا، بين البوذيين السينهاليزيين والتاميل الهنود.

قام يوحنان فوكس (Fox, 1999) بتحليل النظريات التي تتناول الصراعات العرقية والقومية التي يعد الدين عنصرًا رئيسيًا فيها. وقام بتصنيف النظريات إلى أربع نماذج أساسية ووضعها أمام عرض إمبريقي للصراعات من مخزون تيد روبرت جور (Gur 1993 ,2000) عن الصراعات العرقية. وعرض فوكس أربعة أدوار يمكن أن يمنحها الدين للصراعات بين جماعتين: يقدم الدين الإطار الأيديولوجي لفهم العالم، ولذلك فإن جماعة المؤمنين تحمي نفسها بوسائل ـ مواجهة ضد أي محاولة لتحدي هذا الإطار. ويشكل الدين قواعد السلوك التي تربط الفرد المؤمن ونشاطاته بنفس

الإطار. تفسر هذه القواعد السلوكية بصورة عامة كتعليمات عمل في اتجاه حرب الوصايا أو المواجهة.

الدور الثالث للدين هو ربط الفرد بقصة شمولية بل وأحيانًا خلق مؤسسات تنظم وتجند الفرد لتنفيذ هذه الأهداف. وبالتالي فإن أي جماعة لديها زعم تجاه جماعة أخرى، يمكنها أن تحشد المؤسسات الدينية لتحقيق أهدافها، إلا إذا كان لرؤساء المؤسسات الدينية مصلحة سياسية في الحفاظ على الوضع.

وفي النهاية، فإن الدين يقدم المشروعية للأعمال والمؤسسات التي تحقق هذه الأهداف. يظهر البحث الإمبريقي، وفقًا لفوكس، أنه يمكن استخدام الإطارات الدينية لتبرير التعبئة السياسية، حتى حينما لا يكون مصدر الصراع غير ديني بالمرة. وبمعنى آخر: يشير تاريخ الصراعات الإثنية والقومية المعاصرة إلى استغلال الدين ومؤسساته في أهداف سياسية ليس لها في الأصل أي أساس ديني. وبذلك يختزل فوكس الدين باعتباره أحد الأبعاد العرقية، وهيمنة عنصر الدين في الأعراق يتغير من مكان إلى آخر. يصبح الدين عنصرًا جوهريًا حينما تزعم إحدى الجماعات وجود هذا العنصر.على سبيل المثال الصراع في البوسنة في السنوات 1992-1995 أيدت روسيا الصرب (مسيحيين ـ أرثوذكس) بينما أيدت السعودية وإيران وليبيا البوسنيين (المسلمين) ليس بسبب مصالح قديمة وإنما بسبب القرابة الدينية ـ الثقافية.

وتجنب الغرب مساعدة المسلمين البوسنيين أو إدانة أعمال العنف الكرواتية (الكاثوليكية).

يظهر النظر في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني أنه ينقص تحليل فوكس بعدين هامين لدور الدين في الصراع: الأول هو «تعيين»مناطق وأماكن مقدسة ونشر الاعتقاد بأنه يجب التضحية من أجلها بالحياة ولا يجب التخلي عنها أو عن الإيمان بأنها قيم محمية ومقدسة غير خاضعة للتفاوض، أو التنازل أو التسوية (Tetlock et.

al., 2000; Ginges et. Al. 2007; Atran et. al., 2007, 2008).البعد الثاني الناقص في التحليل المذكور أعلاه هو القدرة على تجنيد جماعات إثنو دينية من خارج منطقة الخلاف (العالم الإسلامي، والعالم اليهودي، وعناصر مهتمة في العالم المسيحي) الأمر الذي يمكن أن يعزز قوة الجماعة القومية في ساحة الصدام في فلسطين أو يساعدها. توضح هذه الأبعاد السبب في أن الجماهير الذين أغلبهم علمانيون، وتعد بالنسبة لهم الهوية الدينية أو الهوية القومية العنصر الأبرز في قوميتهم ـ يلجأون إلى صبغ الصراع بالطابع الديني.

سندرس ثقل القيم الدينية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وقدرتها على منع إمكان المصالحة أو التسوية وفقًا للظروف المحددة أعلاه: نناقش في البداية وجود قيم دينية متصادمة بين الإسرائيليين اليهود والفلسطينيين في الموضوعات التالية: الدعوة إلى الحرب، «الإرهاب»، التضحية بالنفس وتجنب المفاوضات والتسويات؛ قدسية الأرض والواجب الديني لاحتلالها أو تحريرها، والسيطرة عليها وتوطينها؛ وأيضًا تركيز المعتقد الديني في أماكن مقدسة، وعلى رأسها جبل المكبر/ الحرم الشريف. وبالنسبة لكل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة سندرس هل هذه القيم هي إرث فقط للحركات السياسية الدينية أو أنها أصبحت أيضًا ملكًا للجمهور العلماني؟ وبعد ذلك ندرس القوة السياسية للحركات الدينية وقدرة تأثيرها على المفاوضات السياسية أو تجنبها. وفي النهاية نتناول قدرة العمليات المتطرفة التي يقوم بها نشطاء وجماعات دينية متعصبة على إجهاض المفاوضات السياسية.

القيم الدينية المتوازية والمتعارضة وانعكاساتها في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

يوجد في اليهودية والإسلام ثلاثة مكونات إيمان دينية رئيسية متوازية تمثل قيمًا متعارضة، لذلك فإنها مجندة في سياقات دقيقة لتعظيم البعد الديني للصراع

الإسرائيلي الفلسطيني: **الأول** هو أحكام الحرب والسلام ـ وبخاصة حول مسألة: هل يجوز إنهاء الصراع بالتسوية مع أفراد دين آخر؟ **والثاني** يرتبط بوضع الأرض (فلسطين) ومسألة هل يجب السيطرة عليها بصورة فريدة، أو يمكن أيضًا اقتسامها مع أبناء شعب ودين آخر؟ ويرتبط المكون الثالث بوضع القدس وجبل المكبر/ الحرم الشريف ومسألة: هل يمكن إتاحة أي حقوق لأبناء دين آخر في هذا المكان المقدس وفي المدينة المقدسة؟

الحرب والسلام والاحتلال

يمكن أن نجد في الكتب المقدسة للديانات التوحيدية وفي الاعتقادات الدينية بصورة عامة، في كثير من الحالات، الشيء وعكسه. تذكرنا أحكام الحرب في القرآن بدرجة كبيرة بقوانين الحرب التوراتية (سفر العدد 20-10). حيث تعظ التوراة شعب إسرائيل بقطع ذكر عماليق بطريقة وحشية للغاية (عدد 25-17) ومحاربة الشعوب السبعة الموجودة في فلسطين، من أجل تحقيق السيطرة الكاملة عليها[٩٥]. ومن ناحية أخرى يمكن الاقتباس من العهد القديم نبوءة إشعيا للسلام (الفقرة 5-1).

والسؤال: أي من هذين المنطلقين يقبله المفسرون الدينيون مرتبط بالسياق التاريخي وبالرؤية؟ أشار إلى شهادات اثنين من الحاخامات يفتيان في أمور الدولة، ولهما آراء عكسية بالنسبة لتسوية الصراع والتسوية الإقليمية. حينما سئل الحاخام

(٩٥) إضافة إلى ذلك، فإنها توصي بالقتال في حرب دفاعية ضد العدو الذي يهاجم إسرائيل (موسى بن ميمون، هلاخوت ملاخيم 5، أ-ب). لم يسمح لشعب إسرائيل بالقتال واحتلال أرض شعوب خارج أرض الميعاد. هكذا، على سبيل المثال، في سفر العدد، لم يسمح لموسى بالسكن بين المؤابيين لأن بلادهم ليست أرضًا موعودة لبني إسرائيل (عدد 8:2-9). إضافة إلى ذلك هناك حرب ــ إدارة يستهدف بها توسيع حدود إسرائيل والإكثار من عظمتها وسموها». نص القانون العبري من فترة السنهدرين (منذ أيام الهيكل الثاني وحتى 425)على أن الملك حينما يتخذ قرار الخروج إلى حرب- إدارة، عليه أن يتشاور مع المؤسسة الدينية القانونية العليا بن 71 أحكام ــ السنهدرين.

عاموس شرقي، الذي يعد من التيار الديني ـ القومي[٩٦]: هل تنطبق علينا الآن حرب الوصايا للدفاع عن دولة إسرائيل ضد أعدائها الذين يهاجمونها وإعادة احتلال غزة وسيناء؟ أجاب: «توجد وصية لاحتلال فلسطين كلها[٩٧]. الحاخام إليعازر ملاميد، رئيس يشيفا ههيسدير في جبل بركه (الذي وجد نفسه في ديسمبر 2009 وسط عاصفة جماهيرية بعد أن شجع تلاميذه الجنود على رفض العمليات المتعلقة بإخلاء المستوطنات التي شيدت بدون تصريح) وتطرق أيضًا إلى التسوية المحتملة وكتب أنه في أي تنازل حتى ولو كان صغيرًا للعدو، توجد مخاطرة كبيرة حيث سيضار الردع». ويفسر ملاميد ما جاء في سفر الخروج «لا يقيمون في أرضك» (خروج 23 ـ 35)، بأنه «واجب طرد العرب من الأرض». وهو يعتقد أن «أي اتفاق (مع الفلسطينيين) يعتمد على اقتلاع يهودي من بيته، محظور». وعلى حد قوله، الانسحاب من المناطق المحتلة مثله مثل التجديف ضد الرب بدرجة «يجب قتله» لأن العرب يحاربون إسرائيل حربًا دينية (حرب كارهينا ضد معتقدنا). وبالنسبة لصلاحية قرار الحكومة بالانسحاب من المناطق، يعتقد ملاميد أن قرارات الحكومة والكنيست ملزمة (فقط) في مسألة دفع الضرائب، وقوانين الحركة، والبناء والتجارة، لكنها لا تنطبق على القوانين التي تتعارض مع التوراة (ملاميد. بدون تاريخ). وهناك تفسيرات أكثر تماديًا من هذه قالها الحاخام يعقوب زيسبرج (1996) الذي يرى أن الفلسطينيين هم عماليق الموصى بإبادتهم[٩٨] في المقابل يوجد حاخامات يؤيدون التسوية لأسباب تتعلق بإنقاذ نفس، خشية من الحرب، ولأسباب أخلاقية أو حتى لا يستثار الأغيار. وأيد

(٩٦) من مواليد الجزائر ونشأ في فرنسا وهاجر إلى إسرائيل عام 1973 وهو من تلاميذ الحاخام تسفي يهودا هاكوهين كوك والآن من معهد مائير، ويعمل حاخامًا لطائفة «بيت يهودا» في كريات موشيه في القدس.

(٩٧) http: / /ravsharki.org /content /view /748. /741

(٩٨) وفقًا لأقواله، فإن الفلسطينيين المعاصرين هم البلست. وقال الحاخام ربي شلومو بن ميمون: إن إبراهيم أخطأ حينما وقطع عهدًا مع أبيمالك، وتنازل عن أرض البلست، وهي جزء من فلسطين، لذلك فقد عوقب هو وأبناؤه عبر الأجيال. وعلى حد قوله فإن وصية «لا تبق نفسًا حية» لا تنطبق فقط على الشعوب السبعة وإنما تنطبق أيضًا على الشعوب التي كانت في فلسطين أثناء الاحتلال، بما فيهم البلست.

التسوية الإقليمية الحاخام يهودا عميطال، من مؤسسي ميماد. وبعد حرب 67 قال الحاخام إليعازر مناحيم شاخ، الذي كان زعيم الحريديم الليتوانين: إنه يجب إعادة الأراضي إذا كان ذلك سيمنع الحرب. لقد اعتقد أيضًا أنه لا يجب إغضاب الأغيار وأن أمور السلام والأمن هي شئون الدولة (براون 315:6: 2002)[٩٩]، وموقفه الأساسي لم يتغير، لكنه عارض حكومات اليسار لعلاقتها بالدين. في الثمانينيات أفتى الحاخام عوفاديا يوسف ـ بأنه من أجل الحفاظ على الأرواح يمكن إعادة المناطق (انظر فيما بعد). وبالتالي فإن مصادر الدين اليهودي تتيح التفسيرات المتأرجحة.

يذكر الإسلام القديم الفقرة التوراتية، وإن كانت مختلفة عنها في المساحة الجغرافية وبكثافة الدعوة للحرب ضد الشعوب التي تؤمن بمعتقد مغاير. في السورة الثامنة من القرآن توجد فقرات متتالية سورة الأنفال : 60-61 ـ تدعو الأولى إلى الحرب والثانية تدعو لمد اليد بالسلام (رياطر 2008). ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الإضافة من المترجم{ . لا يوجد في الإسلام تناول دقيق لمنطقة محددة، مثل «الأرض الموعودة» في اليهودية. وفي المقابل يدعو الإسلام إلى نشر الدين في العالم كله، حتى ولو بالحرب. يزعم المبدأ الإسلامي الكلاسيكي أن الإسلام هو كيان سياسي يعيش في حالة توسع دائم وهو لا يضفي الشرعية على التعايش مع المجتمعات غير الإسلامية، إلا إذا دخلوا تحت لوائه (إذا كانوا ينتمون للديانات الكتابية ـ المسيحية واليهودية، ويضاف اليهم أيضًا الزرادشتيين والصابئة) وإذا قبلوا العمل في إطاره السياسي

(٩٩) لكن منذ عام 1990 أصدر تعليماته بعدم الانضمام لحكومة برئاسة حزب العمل بسبب علاقته بالدين، وليس بسبب موقفه من موضوع السلام. اضافة إلى ذلك، حظي بالشرعية تجاوب الجمهور الحريدي مع اليمين، الذي كان حتى ذلك الوقت يغط في النوم.

والقانوني[١٠٠]. في فترة انتشار الإسلام، عرف رجال القانون الإسلامي العالم غير الإسلامي بأنه «عالم الحرب» (دار الحرب)، أي: المنطقة التي يجب على المسلمين المنتمين «لعالم الإسلام» (دار السلام) أن يحاربوا فيها من أجل إخضاعها للسلطة الإسلامية، وهذا بداية دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام، إذا لم يستجيبوا - فليفعل ذلك بقوة السيف.

لا بد من التأكيد على أن هذا التقسيم لعالمين هو تفسير القانونيين من أيام العصور الوسطى المبكرة وهو لا يظهر في القرآن أو الحديث (بند 15) عرف فلسطين كجزء من دار الإسلام التي يجب اتباع «الجهاد الدفاعي» لتحريرها. وينص المبدأ الكلاسيكي للجهاد على أن الحرب وسيلة دائمة يمكن إرجاؤها أو وقفها مؤقتًا فقط، لاستعادة القوة ومواصلة الحرب حينما يتاح ذلك. وبالتالي فإن الوجود الإسلامي لا يمكن - بداهة - أن يقيم اتفاق سلام دائم. وبالتالي، فإن الاتفاق على عدم الحرب أو عدم الهجوم يمكن أن يقطع لفترة قصيرة ومحددة فقط، في ظروف علاقات قوة أدنى أمام معسكر الخصم. إذا توصل الحاكم الإسلامي إلى نتيجة أنه لا يمكن تحقيق الانتصار السريع على الأعداء - ففي هذه الحالة يسمح به بعقد اتفاق بعدم الهجوم (هدنة) مع الكفار، بهدف تمكين المسلمين من لملمة قواهم واستئناف الجهاد فيما بعد (رياطر 2008؛ هرراه وكارسل 2009).

(١٠٠) Khadduri, 1995, p. 60. بمرور الوقت فسر حكاء الشريعة الإسلامية «الجهاد « كواجب جمعي (فرض كفاية) ينطبق على الحاكم أو على الدولة أو جيشها، وليس على المسلمين كأفراد. وهناك فقط حالة واحدة يجب فيها على كل مسلم، سواء كان صالحًا للحرب أو كان طفلا، امرأة أو مسنًا، أن يشاركوا في حرب الجهاد كواجب شخصي (فرض عين) وهو هجوم العدو المفاجئ. وبعد انضمام شباب سعودي إلى القاعدة والمنظمات «الإرهابية» العاملة ضد السعودية وضد مصالح سعوديين، نشر مفتي المملكة العربية السعودية عبد العزيز آل الشيخ في نهاية عام 2007 فتوى ضد خروج الشباب إلى الجهاد برأيهم، حيث كتب أن الجهاد في يد الحاكم يقرره هو، ومن خرج إلى الجهاد برأيه فقد ارتكب إثمًا كبيرًا. انظر: الشرق الأوسط (لندن، 2 أكتوبر 2007).

وإجابة السؤال: متى يجب الدخول في الحرب؟ ومتى يعقد اتفاق لوقف إطلاق النار أو اتفاق سلام، مرتبط بالتفسيرات وهنا أيضًا يمكن أن نجد انقسامًا بين تيارين من المفتين: تيار راديكالي؛ وتيار براجماتي. مفسرو التيار الراديكالي يؤيدون استخدام القوة العسكرية و «المقاومة» من أجل « تحرير» فلسطين، إذا لم ينجح ذلك بالطرق السياسية. بينما نجد المفسرين البراجماتيين يتمسكون بالسوابق التاريخية التي وقعت فيها اتفاقات مع أعداء الإسلام على تسويات واسعة النطاق. في افتتاحية ميثاق حماس جاء نقلًا عن حسن البنا، من مؤسسي حركة الإخوان المسلمين: «لقد قامت إسرائيل وستظل موجودة إلى أن يمحوها الإسلام كما محا ما سبقها». ومن ناحية أخرى حينما سئل الشيخ جمال البواطنة، الذي كان مفتي فلسطين عام 2005 وعين بعد ذلك وزيرًا للأوقاف في السلطة الفلسطينية، هل يجوز إعاقة انفصال إسرائيل عن غزة في عام 2005 بعمليات عنف وإجراء مفاوضات على (أراضي) فلسطين؟ كانت إجابته: «صحيح أن فلسطين كلها أرض وقف، لكن يجوز تحرير فلسطين أيضًا من خلال المفاوضات»؛ كما قال: إنه «يجب احترام رئيس السسلطة الفلسطينية» (انظر 8.8.05)، واضح من السياق الذي قدمت منه الإجابة أن المفتي أيد موقف محمود عباس وحل الدولتين.

أيٌّ من النمطين التفسيريين مقبول لدى الجماهير العريضة؟ رواية غالبية الفلسطينيين التاريخية تعتبر اليهود نبتًا غريبًا على أرض كانت ملكية عربية (رياتر 2008)، إضافة إلى ذلك، تستخدم حماس والجهاد الإسلامي الفلسطينية وأحيانًا أيضًا جماعات من فتح في سياق المواجهة مع إسرائيل، الجهاد والاستشهاد[١٠١]. إضافة إلى ذلك، حقيقة أن منظمة التحرير الفلسطينية ـ التي تمثل غالبية الفلسطينيين ـ

(١٠١) يكثر الفلسطينيون من استخدام المصطلح الحديث «مقاومه» للإشارة إلى عمليات العنف («الإرهاب») ضد إسرائيل. سك هذا المصطلح في الحرب العالمية الثانية في سياق حركة Resistance الفرنسية ضد الاحتلال الألماني. واستخدام مصطلح مأخوذ من معجم العلاقات الدولية، يهدف إلى اكتساب الشرعية الدولية للعنف ضد إسرائيل، لكنه أيضًا يشير إلى وجود واقعية سياسية.

وقعت مع إسرائيل على اتفاق مبادئ للسلام - (اتفاق أوسلو 1993) وحقيقة أن رئيس السلطة الفلسطينية، محمود عباس أجرى مفاوضات عن التسوية مع إسرائيل، تشير كلها إلى الفصل بين رواية إيمانية دينية والممارسة السياسية.

في الجانب الإسرائيلي لم يصل التفسير الراديكالي للجماهير غير القومية - الدينية. ومفهوم «حرب الوصايا» لا يعرف لدى أغلب الإسرائيليين على أنه له معنى قاطع. غالبية الجماهير الإسرائيلية، بما فيها كثيرون في اليمين السياسي، مستعدون لتسوية تقسيم الأرض بين دولتين - إسرائيل ودولة فلسطينية. ويتركز الجدل العام الآن (2010) في الكتل الاستيطانية وعدم الثقة في رغبة وقدرة الفلسطينيين على التصالح والالتزام بالتعهدات، وليس حول ضرورة إجراء مفاوضات وتقديم تنازلات إقليمية في الضفة الغربية في إطار اتفاق سلام.

قدسية الأرض الفلسطينية كلها وواجب توطينها

واقرار السيادة فيها

يدعي النهج اللاهوتي الشائع بين اليهود الإسرائيليين والمسلمين الفلسطينيين أن الأرض كلها «أرض إسرائيل/ فلسطين هي أرض مقدسة» الأرض الموعودة من ناحية أو «وديعة وقف» من ناحية أخرى - لذلك، ولأسباب ترجع إلى المعتقد الديني، يحظر التسوية في السيطرة عليها ومن ناحية اليهودية توطينها وتعميرها (الاستيطان) بكل جزء فيها أمر واجب. فكرة قداسة الأرض بالكامل نابعة من اتجاهين متوازيين - الأول تقاليدي والثاني حديث. يرجع الاتجاه التقاليدي إلى تفسيرات معتدلة للكتابات المقدسة. ويرتبط الاتجاه الحديث بفهم حق تقرير المصير في الأرض الوطنية المقدسة، الذي يشجع التضحية من أجل الدفاع عنها.

أشارت حدفاه بن يسرائيل إلى الصورة التي تعرف بها الأرض المقدسة كجزء من فهم القوميات في العصر الحديث، كما تبلورت أساسًا في أوربا واعتبار الرب هو الذي أودع هذه الأرض كوديعة لدى الإنسان (بن يسرائيل 1998) الأرض القومية مقدسة بحكم الدين أو تاريخ الشعب وهي مبعثرة في تاريخ أبناء الديانة. في أرض إسرائيل/ فلسطين، يدور الصراع على أرض تعد مهد اليهودية والمسيحية ولها أهمية بالغة في الإسلام السني. منذ الفترة الصليبية على الأقل، والبلاد تعرف باسم «الأرض المقدسة» أو«أرض القدس» (The Holy Land, Terra Sancta) . وانطلاقًا من الخطاب التفسيري الديني المعاصر نجد أن اللاعبين الدينيين والسياسيين ومفسري المصادر التشريعية اليهودية من ناحية والشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، متأثرون بالخطاب الحديث ويدخلون في تفسيراتهم المفهوم الحديث «سيادة» (Funk & Said, 2009) وكما في موضوع حرب الوصايا، هنا أيضًا في كل ما يتعلق بقداسة الأرض التي دار عليها الصراع في أرض إسرائيل/فلسطين يمكن أن نجد في كلا الجانبين رؤى محافظة راديكالية ورؤى براجماتية.

يوجد في المصادر اليهودية وضع خاص لفلسطين، ويوجد المصطلح الجديد «أرض قومية» بقدر كبير في صورة عرض العلاقة بين بني إسرائيل وأرض كنعان، التي غير اسمها إلى أرض إسرائيل. ووفقًا لرؤية الكتاب المقدس، الرب هو السيد الأعلى للأرض وهو الذي خصصها (كنعان) ووعدها كإرث لنسل ابراهيم، أي بني إسرائيل. يجب توطين الأرض ـ التي يوجد خلاف على حدودها ـ وعدم هجرها. وتتكون وصية تعمير الأرض من جزءين: وصية عامة تفرض على كل شعب إسرائيل احتلال أرض إسرائيل وتعميرها، ووصية شخصية تفرض على أي إنسان أن يقيم في أرض إسرائيل. في الجمارا يوجد خلاف (111، 2) ما إذا كانت هذه الوصية تطبق الآن أم لا. ومصدر وصية تعمير الأرض هو فقرة «وترثونها وتعمرونها» (العدد 11:31)؛ أي: الوراثة أولًا (تسيطرون) وبعد ذلك التعمير.

يشير التحليل التاريخي لعلاقة حكماء الدين بوصية تعمير الأرض إلى تغيير في التفسيرات وفقًا للتطورات السياسية المتغيرة (ملحي، 1954-1994)[١٠٢]، وبمعنى آخر: وصية تعمير الأرض متعلقة بعلاقة تاريخية. فسر الحاخام حاييم دروكمان (عضو كنيست سابق عن الحزب الديني القومي وعمل بعد ذلك رئيس إدارة التهويد) أن وصية تعمير الأرض تتجلى في تنفيذ السيادة عليها وليس في مجرد الإقامة بها[١٠٣]. على الرغم من أنه عارض نقل ملكية الأراضي إلى العرب، إلا أنه اعتقد أنه يجب تمكين من يقيمون فعلًا على الأرض بالاستمرار عليها، لكن لا يجب أن نبيع لهم ممتلكات جديدة (شيلج 2006). يعتمد اليهود المتدينون، أنصار أرض إسرائيل الكاملة على تفسيرات موسى بن ميمون وموسى بن مناحيم. لقد أضاف بن ميمون على وصية احتلال الأرض مقولة: «لا نتركها في يد غيرنا من الأمم أو نتركها خالية». إضافة إلى ذلك، فهو لم يعد وصية تعمير الأرض في قائمة الوصايا الستمئة وثلاث عشرة، لأنه اعتقد أن هذه الوصية لاتسري في المنفى، حيث إن أممًا أخرى تسيطر على الشعب. وفي المقابل نجد موسى بن مناحيم يضيف وصية تعمير الأرض إلى قائمة الوصايا التي استبعدها بن ميمون ويرى أنه استبعدها دون حق (نافون 10 ـ 2006).

(١٠٢) أكد التناؤون، حكماء فلسطين في القرن الثاني والثالث للميلاد، مركزية وصية توطين البلاد بل واعتبروها وصية تعادل أي وصية في التوراة. ويرجع ذلك إلى أنه بعد تمرد بار كوخفا تعرض الاستيطان اليهودي في فلسطين إلى أزمة عنيفة وحاول التناؤون وقف تيار النازحين عن البلاد. وفي المقابل، واصل الأمورائيم في القرن الثالث والرابع الذين عاشوا في البلاد، هذا النهج بينما أقرانهم في بابل انتهجوا موقفًا آخر برر حقيقة أن بابل احتلت مكان فلسطين كمركز روحي، ولذلك يحظر تركها حتى ولو كان ذلك للهجرة إلى فلسطين . وزعم حكماء العصور الوسطى أنه لا يمكن تنفيذ وصية توطين البلاد تحت سيادة أجنبية. وكان موقفهم أن من يهاجر إلى فلسطين يمكن أن يعاقب لتنفيذ هذه الوصايا، ولذلك لا يجب الهجرة إلى فلسطين في هذا العصر.

(١٠٣) ترجع الفروق بين رجالات التوراة الكبار إلى الظروف التاريخية التي كتب فيها كل منهم مؤلفه (حوالي 70 سنه تفصل بينهم، في أيام موسى بن ميمون كانت فلسطين في يد الصليبيين بينما اضطر موسى بن مناحيم إلى الذهاب إلى أسبانيا تحت ضغط من البابا كليمانس الرابع وقضى سنواته الأخيرة في فلسطين).

وهنا ننتقل إلى التفسيرات المعاصرة: يشير موقف جوش إيمونيم الراديكالي إلى العلاقة الوطيدة بين خمسة مصطلحات: إله إسرائيل، شعب إسرائيل، توراة إسرائيل، أرض إسرائيل، ودولة إسرائيل. الأرض هي الأرض المختارة التي يجب احتلالها، وتنفيذ السيادة عليها وتعميرها، لأن الرب وعدها لشعب إسرائيل. ولا مكان في الأرض أكثر أهمية أو قدسية من هذا المكان. الأرض كلها مقدسة[١٠٤] (Weisburd, 1989) ويشذ عن مؤسسي جوش إيمونيم الحاخام يوئيل بن نون (آلون ـ شافوت وعفرا) الذي تبنى تحقيق الحد الأقصى الممكن في المفاوضات مع الفلسطينيين وعارض نظرية «ولا شبر». وبهذه الروح دعا علنا، قبيل انتخابات 1992 إلى تفضيل يتسحاق رابين على يتسحاق شامير (شيلج 2006).

كان الحاخام تسفي يهودا كوك (1891-1982) من يشيفا (مركاز هاراف في القدس) أبرز القادة الدينيين الذين اقترحوا تفسيرات قومية راديكالية لمسألة أرض إسرائيل. فقد نص على أن أرض إسرائيل هي وحدة عضوية واحدة غارقة في القداسة ومرتبطة بشعب إسرائيل، ولذلك لا يملك أحد حق التنازل عن جزء منها، كونها لا تخص هذه الجماعة أو تلك (Ravitzki, 1993: 122).

(١٠٤) لا تبعد تفسيرات دوائر حريدية عن ذلك (رخلفسكي1998؛ جرينفيلد 2001). ومهم جدًا رأي حبد. حيث قال الربي مليفوفيتس: إنه بسبب الحفاظ على حياة الإنسان يجب قبول موقف قادة الجيش في كل ما يتعلق بمصير الأراضي التي احتلت عام 1967. لكن ظهر من كلمات أدلى بها، كما قدرها الحاخام الياهو تاجر، يتضح أنه حصل على خبرة في شئون الأمن حينما نص على أن إعادة الأرض يعرض الأمن للخطر. (http://www.he.chabad.org/library/article_aid/497495). ودائمًا وأبدًا انتهج قادة اليشيفات الليتوانية وبعض التيارات في الحسيدية (سامطر) موقفًا يعارض العنف وسفك الدماء ويؤيد أي عمل يرفض ذلك، بما فيه اتفاق سلام. لكن هناك أيضًا تيارات حسيدية غير صهيونية (جور)العلاقة بفلسطين لديهم والذهاب إلى الأماكن المقدسة مقدسة جدًا ويصعب تقدير موقفهم في حال ما إذا أصبح اقتراح التسوية على الأرض واقعيًا عمليًا.

وتمادى تلاميذه ومن ساروا على نهجه في التطرف في تفسيراتهم. طبق الحاخام إليعازر ملاميد (المذكور أعلاه) وصية تعمير الأرض على «الأرض كلها بالفعل» وفقًا لحدود الوعد الإلهي في الفقرة: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات (تك 16 / 18)[١٠٥]. وكما يقول «احتلال الأرض وحدها ما زال وصية لم تكتمل»، ولا بد من إضافة الجانب الثاني، وهو تعمير كل الأرض بالفعل، حتى لا تظل خالية... أي يهودي يقيم في فلسطين يصبح شريكًا بقدر ما في تعمير الأرض، لأنه بإقامته في ملكنا القومي تتعزز الأرض. ومن يذهب ليقيم في أماكن خالية نسبيًا، كالنقب ووادي عربه، فإنه أكثر شراكة في وصية تعمير الأرض، لأنه بإقامته في الأرض يتم توطينها ولا تترك خالية.. ومن يقيم في الضفة الغربية، فإنه ينفذ بإقامته وصية كبرى، لأنه بهذه الإقامة يقدم مساهمة مزدوجة، أولا، من أجل زيادة سلطة إسرائيل في الأماكن التي يريد العرب أن يسرقوها منا (ملاميد، بدون تاريخ). قال الحاخام مردخاي الياهو، الذي كان الحاخام الأكبر لإسرائيل في السنوات 1983-1993: ومقبول جدًا لدى الجماهير الشرقية الدينية - القومية، في فتوى - تشريعية أنه يسمح لليهود عصر زيتون جيرانهم في مناطق الضفة الغربية (هآرتس, 25.10.02)

الحاخام عوفاديا يوسف له تفسير آخر. في رأيه لا تنطبق وصية الاحتلال على الأماكن التي لا يسيطر عليها الإسرائيليون سيطرة كاملة، على الرغم من أنه في رأي موسى بن مناحيم لا يمكن لأي إنسان أن يتصرف هناك على هواه. ففي رأيه لا يمكن تنفيذ وصية تعمير الأرض في تلك الأماكن حينما تكون السلطة ضعيفة

(١٠٥) يضيف يهودا موريئيل (1977) على سبيل المثال، أنه وفقًا للوعد الذي حصل عليه يشوع (1: 3) فإن أي مكان تطؤه أقدامكم هو لكم كما قلت لموسى، أي إن وراثة الأرض مرتبطة بخطوات الشعب الوريث، الذي يجب أن تطأ أقدامه كل الأمكنة التي وعده بها الرب.

ولا يمكنها طرد الغرباء من منازلهم ومدنهم، ولا يمكنه أن ينهي عبادة الأوثان في هذه الأماكن (يوسف 1989)[١٠٦].

في اليسار الديني قام البروفيسور أوريئيل سيمون (ميماد) بالتفرقة بين قدسية الأرض على مستوى النصوص والرموز والمعاني التطبيقية لهذه القداسة. في رأيه، المساس بغير اليهود الموجودين في البلاد يتعارض تمامًا مع قواعد التوراة، ولذلك فإنه ليس محظورًا فقط وإنما هو يضر بتطبيق الإيمان وكذلك أيضًا بقدسية الأرض (Simon, 1992).

أيضًا تعتبر التفسيرات الراديكالية الفلسطينية كل أرض إسرائيل/ فلسطين أرضًا مقدسة. ويزعم ميثاق حماس بقدسية كل أرض فلسطين، لأن الصحابة احتلوها وضحوا من أجلها بأنفسهم. هذه الأرض، منذ اللحظة التي احتلها الجيش الإسلامي وهي أرض إسلامية، وبعد أن احتلها الأغراب لا بد من الجهاد من أجل تحريرها، وهذا واجب شخصي على كل مسلم أينما كان. وبخلاف ذلك، يوجد في الأرض المقدسة أماكن مقدسة وفي مركزها المسجد الأقصى الذي يرتبط بالمسجد الحرام في مكة من خلال إسراء النبي محمد (سورة الإسراء 17: 1) ينص البند 11 في ميثاق حماس 1988 على أن فلسطين كلها هي أرض وقف مقدسة وضعها الله في يد مؤمنيه ولا يمكن لأحد أن يتنازل عنها أو حتى عن جزء منها. وكما أظهرت في مكان آخر، ادعاء حماس في هذا الشأن هو اختراع يعتمد على تفسيرات (خاطئة) للمصادر (Reiter, 2007). في اليوم الذي رفض فيه ياسر عرفات اقتراح رئيس الولايات

(١٠٦) في الثمانينيات، كتب الحاخام شاءول يسرائيلي، الذي كان من قادة يشيفا مركاز هاراف، في كتاب فتاواه ــ الصفحة اليمنى ــ فتوى تفصيلية في مسألة لماذا لا يمكن تأييد سياسة «ولا شبر» وتكليف سكان إسرائيل بمسئولية الحياة في واقع الحرب المستمرة. في التسعينيات كرر هذا الموقف (وكان من قادة الحاخامات المعارضين لاتفاق أوسلو). ونشر مقالًا تجادل فيه مع فتوى الحاخام عوفاديا يوسف (يسرائيلي 1992: أ 94-107). كما كتب الحاخام موشيه زامر، من حركة من أجل يهودية متقدمة، أن صنع السلام هو أكبر بطولة ــ أكبر من الاحتفاظ بكل أراضي البلاد (زامر 1993: 154-161).

المتحدة، بيل كلينتون، في محادثات السلام في كامب دافيد (22 يوليو 2000) التي تضمنت دورية فلسطينية في جبل المكبر بدلًا من السيادة، نشر المفتي الفلسطيني، الشيخ عكرمة صبري فتوى تشريعية تنص على منع المسلمين في فلسطين من تلقي تعويضات مقابل الأرض؛ وجاء ذلك في نفس الفتوى: «تلقي تعويض عن أرض فلسطين مثله مثل بيع الأرض - وكلاهما ممنوع بحكم الشريعة، من يتلقى تعويضًا عن ممتلكاته تنطبق عليه فتوى العلماء في فلسطين منذ الثلاثينيات التي تحظر ذلك تمامًا لأن أرض فلسطين ليست سلعة ننقلها من يد لأخرى، وإنما هي أرض وقف مقدسة ومباركة»[١٠٧]. اعتمد صبري على فتوى منذ عام 1935 وقع عليها 249 عالمًا ومنهم مفتون وقضاة وشخصيات رسمية أخرى في فلسطين، هذا نصها: «هذه الأراضي المقدسة هي القبلة الأولى، وثالث المساجد، هدف الإسراء والمعراج، أرض الأنبياء والمضمخة بدم المقاتلين المسلمين المستقيمين والأنبياء والقديسين، والشهداء والآباء المستقيمين، وأي شبر فيها يحتوى على سندات القدسية المباركة التي عاشت عبر الأجيال وهي التي تحدد البعد الإسلامي للأرض، لأنه لا إله إلا الله وحده ومحمد رسوله. الأرض المقدسة التي تعكس كل ما قيل أعلاه هي أمانة من الله ورسوله، وهي واجب على أكتاف المسلمين، ولذلك فإن بيع شبر منها للصهاينة هو خيانة لله ورسوله ولكل المسلمين و(معناها) إطفاء نور الإسلام المضاء من الأرض المقدسة، و(يضاف إلى ذلك) أنها تساعد في إخراج المسلمين من أرضهم. هناك فتوى أخرى تستهدف سماسرة الأراضي، وهي تعرف كل أرض فلسطين بأنها أراضٍ إسلامية مقدسة (Reiter, 2007) وأراد المفتي صبري بنشر هذه الفتوى التعامل مع المعارضة الإسلامية في قيادة حماس ولم يتح لها الزعم بأن تتاجر فتح/ منظمة التحرير في أرض فلسطين، وإنما بوعي أو بدون وعي تتبنى (وتروج) لنظرية حماس.

(١٠٧) ,Muslim Authorities Reiterate Islamic Stance on Palestine, Jerusalem, Refugees. Palestine Times Issue No. 110 (August 2000), at http: / /www. Palestinetimes .net /issue110 /index0.ht.

سمع صوت التيار البراجماتي فقط بعد وفاة ياسر عرفات وقاله المفتي الفلسطيني جمال البواطنة، الذي ذكرنا موقفه أعلاه، والذي عينه في هذا المنصب محمود عباس، خليفة عرفات في منصب رئيس مظمة التحرير ورئيس السلطة الفلسطينية.

الأماكن المقدسة في القدس وعلى رأسها

جبل المكبر / الحرم الشريف

القدس القديمة وبخاصة موقع جبل المكبر/الحرم الشريف أو باسمه الشائع الآن (منطقة الأقصى) وكذلك أيضًا أماكن مقدسة خارج القدس، (مثل قبر راحيل/ وقبر يوسف في نابلس، ومغارة المكفيله/المسجد الإبراهيمي) هي مرسى هوية دينية - قومية وتاريخية للجماهير العريضة، بما فيها أشخاص ليسوا بالضرورة متدينين أو تقليديين. ولقد أدى قرار حكومة نتنياهو في فبراير 2010 إلى ضم قبر راحيل ومغارة المكفيله إلى قائمة الآثار اليهودية المقرر تطويرها، إلى انطلاق العنف والتهديد بحرب دينية من جانب زعماء فلسطينيين، وهو نموذج واقعي للشحنة المخزونة في الأماكن المقدسة كرموز دينية وقومية. تعتبر المدينة القديمة وجبل المكبر في كلا جانبي الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، قيمة محمية يطالب كل طرف بالسيادة عليها وليس لديه استعداد أن تسلم السيادة عليها مطلقًا للطرف الثاني، وإن كان ممثلو إسرائيل في محادثات بولينج (ديسمبر 2000) وافقوا على التنازل عن السيادة في جبل المكبر (بن عمي 2004). مقترحات التسوية المطروحة الآن هي إرجاء للسيادة، ونقل الصلاحيات إلى طرف ثالث وإشراف دولي. وتزيد الإجراءات الواعية التي تتم في الجيل الأخير من كلا طرفي الصراع، من تطرف المواقف في موضوع القدس والأماكن المقدسة، وتصعب جدًا التوصل إلى تسوية يوافق عليها القادة والجماهير العريضة، بما فيها الجماهير العلمانية والتقليدية.

أول اتجاه واعٍ اجتاح الجانبين هو صياغة القصة التاريخية التي تعرض السيطرة على القدس والأماكن المقدسة كحق تاريخي للأمة الدينية ـ القومية وكجزء من هويتها. ينتمي اليهود للقدس بحكم جبل الموريا ـ موقع التضحية «بإسحاق» ـ والذي يعتبر مكان القدس. ووفقًا للرواية التوراتية اشترى داود هذا المكان من اليبوسيين قبل أكثر من 3000 سنة وجعله عاصمة مملكته. القدس بالنسبة لليهود هي مكان مقر «الشخيناه» (روح الرب المقدسة وفقًا للاعتقاد اليهودي والتي حلت في التابوت المقدس وتحل في الأمة اليهودية في كثير من التفسيرات الدينية اليهودية ـ المترجم) في بيت المقدس الأول والثاني، اللذان كانا على التوالي مركز العبادة اليهودي على مدى حوالي ألف عام ولذلك فهي أيضًا مركز الحاضر اليهودي. خراب الهيكل في التاسع من آب كان منذ ذلك الوقت كارثة قومية ويوم صيام. ومن منظور بعض اليهود الإسرائيليين، أحد أسماء القدس: صهيون، وهو أحد مصادر الإلهام الصهيونية ومصادر الفكرة «عودة صهيون» المؤكدة في الطقوس الدينية اليهودية.

وفي المقابل، يزعم المسلمون بأقدمية المسجد الأقصى في القدس منذ خلق العالم ويشيرون إلى علاقة عربية بالقدس قدرها خمسة آلاف عام، بدعوى أن اليبوسيين الكنعانيين كانوا قبائل عربية قديمة. وبالنسبة لهم القدس هي وجهة الصلاة الأولى في الإسلام، ومبتغى النبي محمد في رحلة الإسراء الواردة في القرآن (سورة الإسراء ـ 1) ومنه عرج النبي إلى السماء وفقًا للشريعة الإسلامية. من ناحية الفلسطينيين ترمز القدس إلى قداسة البلاد كلها، لأن «المناطق المحيطة» بالمسجد الأقصى قد باركها الله (الإسراء ـ 1). تقول الرواية بشأن رحلة محمد: إن الملاك جبريل ربط الحصان الأسطوري البراق على باب مدخل المسجد الأقصى ـ الذي يعرفه المسلمون الآن بأنه مكان الحائط الغربي. واعتمادًا على ذلك، فإن دوائر المسلمين الفلسطينيين تزعم أن الحائط الغربي وهو أيضًا حائط منطقة الأقصى، أرض مقدسة للمسلمين. يضاف إلى ذلك أن ساحة الحائط هي أرض وقف (القدس

التي أقامها الحاج المغربي أبو مدين الغوث في القرن الرابع عشر - ويدل على ذلك ألف شاهد من الآثار والمؤسسات التي أقامها الخلفاء، والسلاطين والعامة من المسلمين في المدينة (Reiter, 2009). (باب المغاربة الذي تبدأ منه وقفية آل أبو مدين هو جزء من التاريخ الإسلامي للقدس الشريف فقد كانت مدينة القدس الشريف بعد الفتح الإسلامي موئلًا قراء وحفاظ القرآن الكريم ورواة الحديث الشريف.. ونقطة التقاء حجاج بيت الله الحرام.. وموطنًا للتقوي والعبادة والتسبيح.. فكان هذا حافزًا للولاة والأعيان أن يخصصوا أوقافًا للصرف على هؤلاء القراء والحفاظ والعباد. وكان ممن استفاد من هذه الأوقاف طائفة من المغاربة آل وتلاميذ سيدي أبو مدين.. حيث أقاموا على الجانب الغربي من الحرم الشريف.. وأوقف لهم الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي (صلاح الدين يوسف أيوب شاد) سنة 1193 (583 هـ) هذا الوقف المعروف بوقف أو حي أو حارة المغاربة أو وقفية سيدي أبو مدين على الجانب الغربي من المسجد الشريف تتوسطه مدرسة الملك الأفضل وهذا الوقف كانت تقوم فيه زاوية سيدي أبو مدين - المترجم)

الاتجاه الثاني، والذي يعد نتاج القصة الدينية القومية للقدس في كلا جانبي الصراع، هو إنكار عناصر إسلامية دينية وغيرها كثير، علاقة اليهود التاريخية ببيت المقدس، والحائط الغربي والمدينة برمتها، ومن الجانب اليهودي - عدم الاعتراف بأهمية القدس للمسلمين قبل ظهور الصهيونية (رياطر 2005).

الاتجاه الثالث هو تقديم تعبير جماهيري عريض للقصة الدينية القومية لكل الجماهير منذ يونيو 1967. ومن الجانب اليهودي الإسرائيلي، يعد التاسع من آب

إشارة إلى خراب بيت المقدس وهو يوم مفضل في نتيجة أيام العمل الرسمية لدولة إسرائيل - وأصبح بمرور الوقت يوم إجازة في عدة أماكن عمل عامة متزايدة. وهو يوم القدس - وهكذا أيضًا الكنيست الذي استن هذا القانون عام 1998 في قانون خاص. وجعلت الحكومة الإسرائيلية وبلدية القدس احتفالات يوم القدس حدثًا رسميًا[١٠٨]. وبعد اتفاقات أوسلو سمح كثير من الحاخامات من أنصار أرض إسرائيل الكاملة بالدخول إلى منطقة جبل المكبر أو المعبد حوله وإظهار العلاقة القوية لليهود بالموقع، وذلك بما يتعارض مع موقف السيادة الرسمي عام 1967. زاد هذا النشاط في السنوات الأخيرة عنبري (Taub & Holander, 2010 ;2008).

من الجانب الإسلامي - الفلسطيني، كان إحراق أسترالي مسيحي لمبنى المسجد الأقصى في أغسطس 1969 هو الذي ولد الادعاء بأن المسجد الأقصى في خطر، لأنه في أسر الصهاينة ولا بد من تحريره بالجهاد، واجتاحت جماهير المسلمين منطقة الأقصى في شهور رمضان في التسعينيات (حوالي 400 ألف شخص وفقًا لتقديرات الشرطة) وذلك سواء لدوافع سياسية أو لاعتقاد ديني بمميزات الصلاة في الأقصى. لكن منذ أن اندلعت انتفاضة الأقصى تم تقييد الدخول إلى الموقع لاعتبارات الأمن، حسب معايير السن ومكان الإقامة. ويوجد الآن حول القدس والأقصى حوار سياسي خطابي ورمزي مكثف في العالم الإسلامي، تجلى في تعبيرات داخل اجتماعات خاصة. وتحت عنوان «يوم القدس» أو«أسبوع الأقصى» رفعت مطالب كثيرة في المساجد في كل أنحاء العالم، وأيضًا في الكتابات

(١٠٨) في هذا اليوم جرت مراسم رسمية في حضور قادة الدولة والجيش في جفعات هاتحموشت (حصن أردني احتله جنود الجيش الإسرائيلي خلال حرب 67 وأصبح رمزًا للبطولة) إحياء لذكرى تحرير القدس وتوحيدها عام 1967. وبعد ذلك تمت مسيرة في وسط المدينة (الغربية) ومن ثم عقد اجتماع ضخم في مركاز هاراف، الذي كان المكان الرئيسي للإرشاد الديني لرجال الصهيونية الدينية ــ القومية. وبعد ذلك أقامت دوائر دينية ــ قومية رقصة أعلام خارجة من وسط المدينة، وأحاطت بأسوار المدينة القديمة وانتهت في ساحة الحائط الغربي. ومساء يوم القدس اعتادت معابد التيار الديني القومي على تلاوة «بركة هليل».

والمقالات العديدة في الخطاب العام. وهذه نفسها توجد عبادة التبجيل والتقديس، مع تشويه معالم الحدود بين الإطار السياسي والإطار الديني. هذه الاتجاهات الواعية الثلاثة تؤدي إلى بدء الجماهير العريضة في كلا الجانبين - بما فيها العلمانيون والتقليديون - بالإصرار وعدم إبداء المرونة في كل ما يتعلق بمستقبل القدس القديمة والأماكن المقدسة. وتم تلقين القيم الدينية للجمهور غير الديني وروجت على أنها قصة قومية آنية وهي تؤثر على مواقف الجماهير في كل ما يتعلق بالمفاوضات والتسوية. هكذا على سبيل المثال، وبعد أن أنكر ياسر عرفات في قمة كامب دافيد الثانية (يوليو 2000) أن الهيكل المقدس كان في القدس، أظهر استطلاع للرأي العام أن 9% فقط من اليهود مستعدون للموافقة على سيادة فلسطينية منفردة على جبل المكبر/ الحرم الشريف، بينما أصر 51% على سيادة إسرائيلية منفردة على جبل المكبر[١٠٩]. هذا على الرغم من حقيقة أن الحكومة الإسرائيلية اعترفت في يونيو 1967 بسيطرة الأوقاف داخل منطقة الحرم الشريف (بصلاحيات معينة). وكانت مشكلة المنطقة المقدسة أحد العوامل الأساسية في فشل محادثات كامب دافيد2 (بن عمي: 2004)[١١٠]. وفي الجانب الفلسطيني كانت المواقف أكثر تعنتًا. على سبيل المثال، حينما أدار ياسر عرفات محادثات سلام في كامب دافيد يوليو 2000 كتب المفتي الفلسطيني، الشيخ عكرمة صبري، الذي عينه عرفات: لا مجال

(١٠٩) استطلاع ن، شرجائي، 91٪ من اليهود ليس لديهم استعداد للتنازل عن الحائط الغربي مقابل سلام. (هآرتس 10-3-2005).

(١١٠) هناك أيضًا مواقف براجماتية: قبيل قمة كامب دافيد منح الحاخام الأكبر السفارادي بقشي دورون بركة الطريق للتسوية في مشكلة جبل المكبر قائلًا: «علينا أن نحافظ على الوضع القدسي الحالي لجبل المكبر المقدس ونحترمه، حيث يعرف لدى الآخرين بأنه منطقة المسجد الأقصى... وبدلًا من انتهاك قدسية الأماكن المقدسة بالحرب والمناقشات اللانهائية، علينا أن نحترم ونقبل وضع كل الأماكن المقدسة... (هآرتس، 28-6-2999). وقد سبق أن اقترح البروفيسور سري نسيبة، رئيس جامعة القدس، الذي يعرف عنه أنه غير متدين، لكنه يعيش جيدًا دقائق الإيمان والإرث الإسلامي، تقسيم القدس والاشتراك فيها بين إسرائيل والفلسطينيين، مع اعتبار القدس مدينة عالمية، وعاصمتين سياسيتين وبلدية عليا مشتركة بإشراف دولي (PASSIA).

للتنازل عن حقوقنا في القدس؛ لأن وجودنا فيها هو قرار إلهي وليس قرارًا إنسانيًا[١١١].

ووجد استطلاع أجراه المعهد الدولي للسلام برئاسة تيريا لارسون وبمساعدة من معهد أبحاث فلسطيني، أن 52% من الفلسطينيين في الضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية) وقطاع غزة عارضوا حل مشكلة القدس وفقًا لمبدأ «أحياء عربية للعرب ويهودية لليهود» (بما فيها المدينة القديمة) (هآرتس 24-9-2009).

تعزز المواقف غير المتساهلة للإسرائيليين والفلسطينيين في موضوع الأماكن المقدسة، زعم باحثين في مجال علم النفس الاجتماعي والسياسي، بأن الأماكن المقدسة مثل تلك التي في القدس هي «قيم محمية» أو«قيم مقدسة» لايمكن التفاوض أو المساومة بشأنها، أو القيام بأي مبادلة فيها (Tedlock et et. Al. 2007; Ginges: 2000 Atran et. al., 2007) زادت مركزية جبل المكبر/ الحرم الشريف كرمز الوعى بين المعنيين بإنهاء الصراع، بأن التسوية المحتملة مرتبطة بتنفيذ السيادة وتغييرها بنوع آخر من نظام خاص وإشراف دولي في حوض المدينة القديمة في القدس (مجموعة التفكير) (Bell & Kurtzer, 2009 ;200) أو العكس تقسيم المدينة القديمة بحيث يكون الحائط والحي اليهودي في يد السلطة الإسرائيلية، بينما تكون باقي أجزاء المدينة القديمة (ما عدا الحي الأرمني) تحت السيادة الفلسطينية (Reiter, 2008) والسؤال الذي سنحاول توضيحه فيما يلي هو: هل يمكن لممثلي القيم الدينية المذكورة أعلاه منع المفاوضات في مشكلة القدس وتسويتها في إطار تسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني؟

تأثير القيم الدينية على السياسة

(١١١) الإسراء، عدد أبريل ــ مايو، 2001 ص 116

هل يستطيع رجال الدين منع المفاوضات والتسوية السياسية؟ لكي يفعلوا ذلك، عليهم أن يكونوا مؤثرين سياسيًا بأنفسهم أو بقوة التحالفات السياسية مع قوى أخرى، حول مصالح مشتركة (Tepe 2008). لأن دراسة الأحزاب الدينية الإسلامية في تركيا والأحزاب الدينية اليهودية في إسرائيل، تقول: إن شعبية الأحزاب الدينية ترجع إلى الحدود المتداخلة بين القيم القومية والعلمانية وبين القيم الدينية المقدسة. والنتيجة هي أن الأحزاب الدينية يمكن أن تنخرط بسهولة نسبية في تحالفات سياسية مع أحزاب علمانية، وهكذا تزيد من قوتها النسبية. نظام الانتخابات المتبع في إسرائيل والأسلوب الائتلافي في تشكيل الحكومة، يعطي قوة الحسم لأحزاب دينية ـ متشددة. في السلطة الفلسطينية تعد حماس هي عنصر السلطة في قطاع غزة منذ 2007 وبمقدورها أن توقف تنفيذ أي اتفاق لا يتفق مع قيمها.

ويصعب أن نحدد حتى الآن إلى أي مدى تؤثر القيم الدينية على صناع القرار في المجال السياسي. **أولًا**: لقد أشرنا أعلاه إلى أن القيم الدينية عن الأرض أصبحت مشاعًا للجماهير العريضة. **ثانيًا**: علمانية/ تدين المجتمع الإسرائيلي معقدة. في استطلاع معهد جوتمان عام 2008 وجد أن 51% من اليهود الإسرائيليين يعرفون أنفسهم بأنهم علمانيون؛ 30% يعرفون أنفسهم تقليديون منهم 12% تقليديون ـ دينيون ـ 10% دينيون و9% متشددون. إضافة إلى ذلك، في استطلاع المكتب المركزي للإحصاء وجد أن 83% من اليهود في إسرائيل ينفذون التعاليم الدينية، على الأقل في المستوى الأدنى. وفي الجانب الفلسطيني وجد استطلاع FAFO الذي أجري عام 1992 ـ بين الفلسطينيين مواطني الضفة الغربية وقطاع غزة، أن نسبة أقل 20-25% يعرفون أنفسهم بأنهم «علمانيون» (Heiberg & Øvensen, 1992) ويقول الباحثون: إن الدين هو مسألة أساسية في المجتمع الإسلامي بما في ذلك بين الفلسطينيين أيضًا، وهو يؤثر على كل سلوكيات المسلمين ولا يمكن الفصل بينه وبين الدولة (يادلين 2006).

والتمييز الثالث مزدوج المعنى هو التأثير السياسي لممثلي «المانع الديني» في تسوية الصراع. من ناحية، توجد في إسرائيل حكومة أغلبها من العلمانيين، نسبة الدينيين في الكنيست 25% وهم منقسمون إلى ثلاثة أحزاب مختلفة. ومن ناحية أخرى، الأحزاب الدينية لها ثقل بالغ في الحكومة ولذلك يوجد أهمية لمواقفها وبخاصة موقف شاس (11 مقعدًا في الكنيست في انتخابات 2009). وفي فترة حكومة أولمرت وخلال المفاوضات الائتلافية بين شاس ورئيسة كاديما تسفي ليفني، نوفمبر 2008 اشترطت شاس استمرار شراكتها في الحكومة بعدم الدخول في مفاوضات مع الفلسطينيين حول القدس، وما زال هذا هو موقفها حتى الآن (2009). في انتخابات 2009 كانت شاس، التي يعد أغلب ناخبيها من التقليديين والمتشددين، تعد عنصرًا هامًا في الائتلاف الحكومي، وبعد هذه الانتخابات غيرت لائحتها الداخلية، وانضمت إلى الاتحاد الصهيوني العالمي وعضوية حركة الليكود العالمية (هآرتس 19-1-2010). يرجع تطرف شاس الأيديولوجي في مشكلة الصراع، إلى أن جزءًا جوهريًا من ناخبي شاس يقيمون الآن في مستوطنات في الضفة الغربية (الجولان. «ذه لو يسي»). (هآرتس 10-6-2009). ويبدو أيضًا لأن الجماهير الدينية والتقليدية والشرقية لها مواقف يمينية بسبب القيم الدينية والرواسخ الطائفية. يمكن أن نخرج من ذلك بأن تأثير اللاعبين الدينيين الأيديولوجيين أكبر بكثير من قوتهم النسبية، وذلك بسبب الأسلوب السياسي الائتلافي المتبع في إسرائيل. ويمكن أيضًا أن نخرج من ذلك بأن المصالح الاقتصادية (الإسكان الرخيص والمتاح وراء الخط الأخضر) تلعب دورًا في تغيير المواقف السياسية والأيديولوجية بين الجماهير الحريدية.

في الجانب الفلسطيني حصل أبو مازن (محمود عباس، علماني، فتح) على أغلبية 62% في انتخابات رئاسة السلطة الفلسطينية التي جرت في يناير 2005، لكن في هذه الانتخابات لم تقدم حماس مرشحًا من جانبها. وفي المقابل، في

انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني، الذي جرى في يناير 2006 حصلت حماس على 43% من الأصوات بأغلبية 56% من مقاعد المجلس. وبعد ذلك حصلت حماس على منصب رئيس حكومة الوحدة الفلسطينية. وبعد أن سيطرت بالقوة على قطاع غزة، تتمتع حماس الآن بقوة كافية لإملاء جدول أعمال سياسي في المناطق التي تسيطر عليها. ويفيد استطلاع المعهد الدولي للسلام برئاسة تريا لارسون في سبتمبر 2009 بمساعدة معهد أبحاث فلسطيني أن حوالي 45% أعربوا عن تأييدهم لفتح في مقابل 24% فقط أيدوا حماس 52% أيدوا أبو مازن كرئيس و22% أيدوا هنية، والباقي لم يقرروا بعد. ويظهر من الاستطلاع أن 55% من الفلسطينيين يؤيدون حل الدولتين، لكن تشير إجاباتهم عن الأسئلة الدقيقة عن هذا الحل إلى وجود فجوة كبيرة مع الموقف الإسرائيلي في موضوع القدس واللاجئين (هآرتس 24-9-2009). يمكن أن تؤثر العناصر الدينية على العملية السياسية حينما تنخرط في قوى الأمن. في الجانب الفلسطيني، القوة العسكرية في قطاع غزة خاضعة لسيطرة حماس الكاملة، بينما أجهزة الأمن في الضفة الغربية خاضعة الآن (2010) لسيطرة فتح. في إسرائيل، عدد ممثلي الصهيونية الدينية في الأسلحة القتالية في الجيش الإسرائيلي، وفي مناصب القيادة، وفي شعبة القوى البشرية والحاخامية الرئيسية قليل بالفعل، لكنه في اتجاه الارتفاع ونسبة الدينيين القوميين في وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي أكبر بكثير من نسبتهم بين المواطنين. في نهاية التسعينيات ـ كان حوالي 30% من ضباط الصف والضباط الصغار يعتمرون غطاء الرأس المطرز، وتصل نسبتهم بين خريجي دورة طيار إلى 11% بينما انخفضت نسبة الخريجين من أبناء الكيبوتسات من 19% إلى 12 % في عام 1999 ويعد من هذه المجموعة عميد واحد في هيئة الأركان وخمسة عقداء (من 40 في الجيش الإسرائيلي في المجمل العام (كاهان 8-237/ 2002). في عملية «الرصاص المصبوب» (ديسمبر 2008 ـ يناير 2009) برز دور هذه المجموعة بين المقاتلين كما برز أيضًا الانضباط الذي

نفذته الحاخامية الرئيسة، الذي استخدمه ممثلوها في الخطاب الديني الراديكالي في حديثهم إلى الجنود في المنطقة (هآرتس26-1-2009). هذا مجرد نموذج للتأثير المتزايد للدينيين القوميين على الصراع. يضاف إلى ذلك 50 يشيفوت هسدير، يدرس فيها في كل دورة آلاف التلاميذ من الحركة الدينية الوطنية الذين يخدمون في الجيش الإسرائيلي. وهم يتلقون قيمًا دينية وصهيونية بتفسيراتها الراديكالية، ولقد أعرب بعض الحاخامات عن تأييدهم لرفض الجنود إخلاء المستوطنات.

قوة تأثير ممثلي القيم الدينية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ليست قاطعة وخاضعة للتغييرات. وعلى الرغم من أن الأحزاب الدينية (وبخاصة شاس) هي حجر أساس هام في تشكيل الائتلاف الحكومي، إلا أنه ليس من الواضح إلى أي مدى تشكل «مانعا» أمام التسوية السلمية. يزعم دورون وروزنتال (2009) أن الأحزاب الممثلة للمستوطنين (اليمين المتطرف) لم تنجح في أن تكون «رمانة ميزان» في الائتلافات، وبالتالي فإن قوتها السياسية لم تمكنها بصورة عامة من ترجيح السياسات والموارد نحو تفضيلاتهم. لكن هؤلاء الباحثون لا يضعون في الاعتبار كل الأحزاب الدينية ومؤيديها الذين لهم قوة حسم (swinging role) في السياسة الإسرائيلية. في استطلاعات الرأي العام وجد في الماضي أغلبية من اليهود الإسرائيليين أيدوا تحقيق السلام مع الفلسطينيين على أساس صياغة دولتين لشعبين، مما أعطى الزعماء حرية عمل في المفاوضات. ولم ينبع تراجع الأغلبية اليهودية المؤيدة لتسوية مع الفلسطينيين، كما يظهر من نتائج انتخابات الكنيست في 2009 لأسباب «دينية» وإنما يرجع في الأساس إلى اعتبارات أمنية وفقدان الثقة في نوايا الطرف الفلسطيني (الانقسام في السلطة الفلسطينية، واستمرار «الإرهاب» من غزة وعدم التأكد من القدرة على التوقيع على اتفاق كهذا). وها هو بنيامين نتنياهو قد اضطر بعد فترة وجيزة من انتخابه إلى قبول صيغة الدولتين بعد ضغط الرئيس الأمريكي عليه. وفي الجانب الفلسطيني كان رئيس السلطة الفلسطينية يملك حرية عمل واسعة لإجراء

مفاوضات في عملية أنابوليس عام 2008. لا تقف الحركات الدينية في وجه عمليات المفاوضات، لكن ليس من المستبعد أن تؤثر القيم الدينية على نتائج المفاوضات وعلى احتمالات تنفيذ الاتفاق، في حال تحقيقه بين الأطراف.

«الإرهاب» والاغتيال السياسي على خلفية المعتقد الديني، كعائق في المفاوضات والتسوية.

تستطيع العناصر الدينية المتطرفة إفشال عمليات المفاوضات والتسويات السياسية من خلال المؤامرات و «الإرهاب» وفي الحالات المتطرفة بصفة خاصة أيضًا من خلال الاغتيال السياسي. بالنسبة للاغتيال السياسي، سواء قيام مجموعة جهادية عملت وفقًا لبرنامج ديني بقتل الرئيس المصري أنور السادات في عام 1981 (Jansen, 1986) أو اغتيال رجل متدين أرثوذكسي، لرابين رئيس الوزراء الإسرائيلي في عام 1995 عملًا بنص «جواز القتل» الذي أفتى به بعض الحاخامات (كارفين وفريدمان, 1999; Ben-Yehuda, 2004 ; شيلج 2006).

يمكن أن يتكرر الاغتيال السياسي الراجع إلى قيم دينية. في مارس 2008 اقتبس عن الحاخام هرشل شختر، رئيس مدراس الربانيين في «يشيفا يونيفرسيتي» في نيويورك، حيث قال: أنه «إذا تنازلت حكومة إسرائيل بالفعل عن القدس، فلا بد من إطلاق الرصاص على رئيس الوزراء». وبعد نشر ذلك أعرب الحاخام شختر عن اعتذاره وندمه على ذلك (هآرتس 9-3-2008). في بداية عام 2010 وصلت خطابات تهديد لوزير الدفاع في حكومة نتنياهو، إيهود باراك، في أعقاب اهتمامه بفرض

صارم لتطبيق تجميد البناء في المستوطنات في الضفة الغربية. وهناك اغتيال سياسي محتمل أكثر في الجانب الفلسطيني. في السنوات الأخيرة نشر أن حماس تخطط لاغتيال رئيس السلطة، محمود عباس، من خلال سيارة مفخخة نصبت في مسار موكبه.

هناك نوع آخر من أعمال العنف لإجهاض المفاوضات السياسية وهو « الإرهاب» الذي تحركه أيديولوجية دينية، وبخاصة المساس برموز الهوية والأماكن المقدسة. على سبيل المثال: كثير من أفعال حماس والجهاد الإسلامي بما فيها قتل طلاب يشيفا في الخليل، خرجوا لتوهم من الصلاة (1980) ومذبحة يشيفا مركاز هاراف في القدس في 2008 ـ وخطة الحركة السرية اليهودية في السبعينيات لتفجير قبة الصخرة والمسجد الأقصى (وهي الخطة التي حصلت على تأييد ثلاثة حاخامات[١١٢]. وعملية الجامعة الإسلامية في الخليل عام 1986؛ واغتيال المصلين في المسجد الإبراهيمي (الأثر الإسلامي لمغارة المكفيلة) في الخليل فبراير 1994. هذه الأفعال توسع من العداء تجاه الطرف الثاني وأيضًا بين العناصر المعتدلة ومن هنا يأتي تأثيرها السلبي على احتمالات تسوية الصراع (Hanauer, 1995). يولد «الإرهاب» دعوات الانتقام والعمليات الانتقامية من كلا الجانبين[١١٣].

(١١٢) ن،شرجائي. لدينا تصديق بمحو ذلك، فما هو رأي الحاخام؟ هآرتس.

http://www.haaretz.co.il/hasite/pages/ShArt.jhtml?more=1&itemNo=865572&contrassID=2&sub

ContrassID=4&sbSubContrassID=0

(١١٣) على سبيل المثال، بعد عملية يشيفا هاراف في القدس (2008) وجد حاخامات دعوا إلى الانتقام. قال الحاخام يسرائيل روزن: إن الفلسطينيين هم العماليق المعاصرين (أي لا بد من إبادتهم). وكذلك أيضًا قال حاخام صفد، شموئيل الياهو، والحاخام دوف ليئور. ونشرت جماعة تطلق على نفسها «السنهدرين الجديد» دعوة للانتقام الشخصي لليهود، لأن الحكومة لا تنفذ الشريعة (هآرتس 23-3-2008). أما الحاخام دانيال سيله، الذي سبق أن ترأس لجنة حاخامات الضفة الغربية وغزة، فقد دعا إلى انتقام رسمي ممن وراء القتلة. وكان هناك أيضًا حاخامات أعربوا عن معارضة هذا الموقف، مثل الحاخام إليعازر أهارونسون، رئيس يشيفا هاهسدير في حولون. عن منشور الحاخامات الموقعين إضافة إلى الحاخام عوفاديا

تجلى تدخل القادة الدينيين في مؤشرات القوة الأمنية في كلا الجانبين. في الجانب الفلسطيني، الدفاع عن الأقصى كقيمة مقدسة لفتح أيضًا وليس فقط للحركات الإسلامية (Frisch, 2006) وتجلى ذلك في الجانب الإسرائيلي في دعوة حاخامات كبار لجنود الجيش الإسرائيلي وبخاصة الجنود المتدينين القوميين، إلى رفض الأوامر العسكرية لإخلاء المستوطنين ـ وهي الدعوة التي أثارت رد فعل مضاد من جانب عناصر الدين المعتدلين الذين دعوا إلى عدم الانصياع للحاخامات في شئون الدولة (حديث مع البروفيسور موشيه قافيه، رئيس جامعة بار إيلان، ملحق هآرتس 23-9-2005)[١١٤].

الخلاصة: يمكن أن يفاقم التعصب الديني لبعض الأفراد أو الجماعات من الصراع ويصعد أبعاده العنيفة. وكذلك، فإن العمليات «الإرهابية» التظاهرية التي تركز على الرموز الدينية ورموز الهوية والاغتيال السياسي للزعماء المعتدلين من جانب عناصر ذات أيديولوجية دينية متطرفة، يمكن أن تعيق المفاوضات وتجهض التسوية.

يوسف، الحاخام دانيال ستابسكي، الحاخام يتسحاق شابيرا ميتسهار، الحاخام دافيد دروكمان من حاخامات «حماية الأرواح»، الحاخام عيدو البا الذي حكم عليه بالسجن بسبب التحريض على العنصرية، الحاخام جادي بن زمرا، حاخام معهد في معليه ليفونا، الحاخام شموئيل يانيف، الحاخام عوزي شرنف من الخليل، الذي شارك في عملية اغتيال في الكلية الإسلامية في الخليل، الحاخام يجآل شندورفي من نحليئيل والحاخام يهودا كرويزر ــ رئيس يشيفا الفكرة اليهودية، ومن أنصار « كاخ» . شرجائي وي، أتينجر. ونشر حاخامات ومنظمات يمينية منشورات تدعو إلى الانتقام وضرب أسرة المخرب. (هآرتس 13-3-2008) ن، شرجائي. هل هو حيوان ثديي؟ هآرتس (25-3-2008) ونشرت هيئة تحرير هآرتس مقالًا افتتاحيًا ضد « فتوة الحاخامات»: بتاريخ (21-3-2008).

(١١٤) قبل عدة شهور من اغتيال رئيس الوزراء يتسحاق رابين، خرجت مجموعة مكونة من 15 حاخام من المعسكر الديني القومي (كان أربعة منهم مرتبطين بيشيفا هاهسدير) بدعوة علنية للجنود برفض أي أمر لتفكيك المستوطنات اليهودية في فلسطين (هاتسوفيه 23يونيو 1995، مقتبس عن ستيوارت كوهين.237:2002-238)، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أحد الحاخامات (مناحيم فليكس) عرف حكومة رابين بأنها» حكومة حكمت بفضل كارهي إسرائيل» في إشارة إلى أعضاء الكنيست العرب (رافيسكي 266:2002).

تلخيص ومقترحات لتحييد التأثير المانع للقيم الدينية واللاعبين الدينيين المتطرفين

كثيرًا ما تتأثر الساحة الجماهيرية في المنطقة الإسرائيلية والفلسطينية بالقيم والمثاليات التي يتم تعليمها في المجال الديني ـ الإيماني وأحيانًا تستخدم من قبلها. وتوجد علاقة واضحة وتأثير لا بأس به بين علاقة الفرد بالدين وبين تشكيل مواقفه السياسية بصورة عامة وبالنسبة لحل الصراع بصورة أكثر دقة. لهذا السبب يوجد للقيم الدينية وللعناصر السياسية التي تمثلها، قدرة ملموسة على منع إمكانية تسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ويرجع ذلك بصورة خاصة إلى اعتبار القدس وجبل المكبر /الحرم الشريف مركزًا رمزيًا رئيسيًا بمثابة «قيمة محمية» تؤمن الجماهير العريضة من كلا جانبي الصراع بإمكانية تسويتها. تعتمد قدرة «المنع» على عدة إمكانات تمت مناقشتها في هذا الفصل:

- نجاحها في تلقين الجماهير العريضة، التي لا تصف نفسها بأنها «دينية»، ولا تعرف قيمها الدينية باعتبارها جزءًا من رموز الهوية القومية.
- قوة سياسية ملموسة لحركات سياسية دينية، مثل حماس في الجانب الفلسطيني والأحزاب الدينية في إسرائيل التي تزيد قوتها من خلال اشتراكها في الائتلاف الحكومي وقوى الأمن وقطع العهود مع قوى سياسية أخرى.
- استخدام عناصر دينية متعصبة للإرهاب.

يبرز وضع القيم الدينية وقدرة تأثير اللاعبين الدينيين في المجتمع الفلسطيني أكثر من المجتمع الإسرائيلي. هذا كون المجتمع الفلسطيني أقل علمانية وبسبب قوة حماس،التي تعتمد على التنظيم العسكري والتأييد الجماهيري العريض.

إحدى وسائل تجاوز العائق القيمي الديني الأساسي ـ القدس وجبل المكبر/ الحرم الشريف ـ هي التسوية المؤقتة (وليس التسوية الدائمة) التي تضع نظامًا

خاصًا في المدينة القديمة وضواحيها القريبة، مع إشراف دولي. تعتمد هذه التسوية على الوضع القائم منذ 1967 الذي يسمى أحيانًا «الوضع الراهن» (الذي وضع الحرم الشريف/ جبل المكبر بموجبه تحت سيادة الوقف (لكن المراقبين غير المسلمين يمكنهم الدخول إلى الموقع في مواعيد منسقة سلفًا) بينما يعتبر الحائط الغربي تحت السيطرة الإسرائيلية. مثل هذه التسوية المؤقتة تتيح لزعامات الجانبين مرونة أكثر، لأنهم لن يتهموا بالتنازل التاريخي عن مصالح حيوية على المدى البعيد أو التسوية في قيم محمية ومقدسة. يمكن أن تطول هذه التسوية المؤقتة بدرجة لا تتمكن فيها الأطراف من التوصل إلى تسوية دائمة. يمكن أن تقبل الزعامات العلمانية هذه الصيغة ويمكن أن تتغلب على «تطيير» اللاعبين الدينيين فقط إذا كانت الظروف السياسية في الجانبين ـ الفلسطيني والإسرائيلي ـ تتيح للعناصر المعتدلة وغير الدينية بأن تحظى بأغلبية في الانتخابات وتشكيل الحكومة. ويمكن أن يقبل الجانب الفلسطيني المعتدل مثل هذه التسوية المؤقتة، لأنه بالفعل مسيطر بصورة عملية داخل منطقة الحرم الشريف.

هناك من يعتقدون أنه يجب إشراك رجال الدين في عملية الإدارة وحل الصراعات الإقليمية التي لها بعد ديني. وفقًا لهذا الرأي، كما يقدم الزعماء الدينيون تفسيرات غير قابلة للتسوية في مسائل سياسية، فإنها يمكن أن تعيد تشكيل حدود قدسية المناطق في الصراع (Funk & Said, 2009: 269; Hassner, 2009) . هذه المشكلة مركبة؛ كون الزعماء الراديكاليين لا يميلون إلى تغيير مواقفهم النابعة من رؤية لاهوتية وسياسية في آن واحد. إضافة إلى ذلك، الزعماء الدينيون المعتدلون لهم دور هام، حتى وإن كان جمهور المؤيدين المباشرين ليس كبيرًا. وهم يمكنهم تقديم تفسيرات معتدلة للمصادر الدينية في المشاكل المتعلقة بالصراع القومي والإقليمي وتمهيد الطريق للتسوية، مع تأسيسها على المصادر الدينية. تأثير المفسرين المعتدلين بالقوة لن يكون على الجماهير الدينية ـ القومية، وإنما في الأساس على

الجماهير التقليدية أو الدينية الأكثر اعتدالا، وهؤلاء يشكلون جماعة كبيرة أيضًا في المجتمع اليهودي الإسرائيلي والمجتمع الفلسطيني. وكون جزء كبير من الجمهور الإسرائيلي والفلسطيني يؤسس آراءه على تنوع الاعتبارات، فإن رجال الدين المعتدلين يمكنهم تفريغ الشحنة الحساسة من القيم الدينية وتقديم تفسيرات دينية بديلة لتلك الموجودة عند الحاخامات والشيوخ الراديكاليين. يوجد دور هام في حرب التفسيرات المعتدلة والبديلة على الجمهور، لحشد الدعم وتأييد الاتفاق الذي يعتمد على التسوية. يمكن للقادة الدينيين المعتدلين أن يضعفوا معارضتهم للتسوية، القائمة على خلفية دينية، وذلك من خلال عزلة الدوائر المتطرفة من كلا الجانبين والتركيز على حقيقة أن تفسيراتهم للمصادر الدينية تتواءم مع «جيل الصحراء» (هو الجيل الذي خرج من مصر بقيادة سيدنا موسى عليه السلام ووعد بدخول فلسطين واعتبارها - وفقًا للمعتقد الديني اليهودي - إرثًا خاصًا بهم - المترجم) ولم تتقدم بمرور الوقت. دورهم هو العمل كأداة إعلامية للجماهير العريضة، العلمانية، التقليدية والدينية المعتدلة (بما فيها بعض المتشددين في المجتمع اليهودي في إسرائيل). ويمكن للحكومات والمنظمات المعنية بالتسوية أن تستخدم وسائل الإعلام لنشر تفسيرات الحاخامات والشيوخ المعتدلين على الملأ. تملك الحكومات قدرة بالغة على تسويق التفسيرات الدينية المعتدلة والمحبة للسلام، لكن لسبب ما لم تظهر اهتمامًا كبيرًا بذلك حتى الآن.

هناك وسيلة أخرى لتحييد التأثير الضار للذين يمثلون مواقف غير مفسرة، وهي الفرض الصارم للقانون على أولئك الذين يستخدمون النصوص والقيم الدينية بهدف إشعال العنف. اعتقال الشيخ رائد صلاح عام 2010 لنشاطاته التي قام بها في عام 2007 في قضية طريق المغاربة، هو نموذج للجهود التي يمكن أن تقوم بها الحكومات تجاه رجال الدين المحرضين. وإذا كانت عناصر الفرض معنية بتقديم رجال الدين المحرضين للمحاكمة، وإذا أرفق مع أي عريضة اتهام رأي الخبراء الذين يبررون

كيف تعد التعبيرات المتطرفة بمثابة «تأكد قريب» لاندلاع أعمال عنف وسفك دماء، فإن هناك احتمالاً جيدًا لأن يدان المحرضون ويقدموا للمحاكمة على أفعالهم.

وهذه ملاحظة ختامية: تشير المعطيات الديموغرافية إلى أن زيادة الجماعات الدينية الطبيعية عالية، لذلك فإن قوتهم السياسية سوف تزداد بدرجة كبيرة. ومعنى ذلك أنه كلما تم تأجيل تسوية الصراع، يكون للقيم الدينية قدرة بالغة على وقف احتمال تسوية الصراع بالطرق السلمية والتسوية.